

العدل .. قيمة الإسلام العليا

بقلم : عبد الآخر حماد

1- في قوله تعالى : (والسماء رفعها ووضع الميزان* أن لا تطغوا في الميزان * وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان) [سورة الرحمن : 7-9]، إشارة إلى حقيقة مهمة تربط بين قضيتي الخلق والأمر، وهي أن العدل هو أساس الخلق كله، إذ الميزان هو رمز العدل ووسيلة تحقيقه؛ فما قامت السموات والأرض إلا بالعدل، ولا صلاح لهما إلا به، قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية (271/4) : ((أي خلق السموات والأرض بالحق والعدل لتكون الأشياء كلها بالحق والعدل، ولهذا قال تعالى : (وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان) ...)) .

2- والله تعالى كما خلق الخلق على مقتضى العدل والميزان، فإنه قد حرم الظلم على نفسه قبل أن يجرمه على عباده، كما قال تعالى في الحديث القدسي : (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا) . [أخرجه مسلم (2577) من حديث أبي ذر]

3- وما من أمة إلا وهي تدعي أنها تقيم العدل، وقد يكون العدل عندهم ما يراه أكابرههم ومقدموهم، أو ما تواضعوا عليه فيما بينهم، ولذا تجدد العدل عند قوم خلاف العدل عند آخرين، وقد يما عرف سقراط العدل بأنه إرادة الأقوى، أي ما يفرضه الأقوياء على الضعفاء، أما العدل في الإسلام فإنه العدل المطلق الشامل الذي يعني إعطاء كل ذي حق حقه، وبعبارة أخرى فإن العدل في الإسلام هو تحقيق إرادة الله الشرعية القاضية بإقامة شرعه ونبذ ما خالفه، وقد بين تعالى أنه ما أرسل رسوله الكرام إلا لأجل أن يقوم الناس بالعدل، ولا يتظالموا كما قال تعالى : (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) . [الحديد : 25] .

4- وبتابع دعوة الرسل يتم الانسجام بين الإرادة الشرعية الآمرة بالعدل، وبين الإرادة الكونية من حيث اقتضاؤها أن يكون نظام الخلق قائماً كما أسلفنا على ميزان الحق والعدل، ومن أجل ذلك فإنه يوم يضيع منهج الله من الأرض، ويختل ميزان العدل في دنيا الناس اختلالاً لا صلاح له، فإن ذلك يكون أيضاً إيداناً باختلال النظام الكوني كله، وقد

ثبت في الأحاديث الصحيحة أن الساعة لا تقوم إلا على شرار الخلق كقوله صلى الله عليه وسلم : (لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس) [أخرجه مسلم (2949) من حديث ابن مسعود] ، وقوله : (لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله ، الله) [أخرجه مسلم (148) ، والترمذي (2207) من حديث أنس] ، وفي التزييل أن نظام الكون يختل عند قيام الساعة كما في قوله تعالى : (إذا الشمس كورت * وإذا النجوم انكدرت * وإذا الجبال سيرت * وإذا العشار عطلت * وإذا الوحوش حشرت * وإذا البحار سجرت) [التكوير : 1-6] ، وغير ذلك من الآيات التي تتحدث عن قيام الساعة ، وما يصاحبها من انقلاب الكون ، واختلال نظامه ، وهذا يفهم منه - والله أعلم - الارتباط الوثيق بين ضياع ميزان الحق من دنيا الناس واختلال ميزان الكون ، تمهيداً لتحقيق العدل بأكمل معانيه ، والذي يكون الميزان الحسي أدواته ووسيلة تحقيقه (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسين) [الأنبياء : 47] .

5- وأول حق يجب على العباد أدائه هو حق الله عليهم بتوحيده سبحانه وإفراده بالعبادة كما قال صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل : (حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً) [أخرجه البخاري (5967) ، ومسلم (30)] ، ولذا فالتوحيد هو أعدل العدل وهو أقسط القسط ، كما أن أظلم الظلم الإشراف بالله تعالى ؛ كما قال لقمان لابنه وهو يعظه : (يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم) [لقمان : 13] .

ومن هذا المعنى التوحيدي للعدل تنبثق كل معاني العدل في الإسلام ، فالحاكم العادل ما استحق أن يكون يوم القيامة من السبعة الذين يظلمهم الله بظلمه يوم لا ظل إلا ظله إلا لكونه يقصد بعدله وجه الله تعالى ، وكذا عدل الرجل بين أزواجه وأولاده وغير ذلك من أنواع العدل إنما يستحق صاحبه الثواب إذا كان إنما يفعله ابتغاء مرضاة الله تعالى ، أما من فعل ذلك رياء وشهرة فعمله مردود عليه كما قال تعالى في الحديث القدسي : (أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه) [أخرجه مسلم (2985) وابن ماجه (4202) من حديث أبي هريرة] .

6- وإذا كانت شريعة موسى قد تحولت على يدي اليهود إلى نوع من المادية المغرقة في الشدة والقسوة وإيثار الحياة الدنيا على الآخرة ، وإذا كانت شريعة عيسى قد

تحولت على يدي النصارى إلى نوع من الروحانية المغرقة في ترك متاع الحياة الدنيا ممثلة في الرهبانية التي ابتدعوها وما كتبها الله عليهم، فإن شريعة الإسلام قد جاءت لتعيد العدل المفقود فتأمر المرء بأن يعطي كل ذي حق حقه؛ حتى إنها لتنهاه أن يغالي في حق الله تعالى على حساب حقوق المخلوقين، وتأمره أن يوازن بين حق الله وحق العباد، وقد صح في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بلغه أن عبد الله بن عمرو بن العاص يقول لأقومن الليل ولأصومن النهار ما عشت قال له: (يا عبد الله ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل؟ قال عبد الله فقلت: بلى يا رسول الله، قال: فلا تفعل، صم وأفطر، وقم ونم، فإن لجسدك عليك حقاً، وإن لعينك عليك حقاً، وإن لزوجك عليك حقاً وإن لزورك عليك حقاً) [أخرجه البخاري(1976) ومسلم (1159) من حديث عبد الله بن عمرو].

وفي الصحيح من حديث أبي جحيفة قال: (آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء فرأى أم الدرداء متبذلة، فقال لها ما شأنك؟ قالت أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاماً، فقال له: كل، قال فإني صائم، قال: ما أنا بأكل حتى تأكل، قال: فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم قال: نم فنام، ثم ذهب يقوم فقال: نم، فلما كان من آخر الليل قال سلمان قم الآن، فصليا، فقال له سلمان: إن لربك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً ولأهلك عليك حقاً، فأعط كل ذي حق حقه، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (صدق سلمان) [أخرجه البخاري (1968) ،(6139) والترمذي (2413)].

7- وإن من قمم الإسلام السامقة التي لا يدانيه فيها تشريع أنه أمر بالعدل حتى مع الأعداء الذين نبغضهم ونعاديهم، ونهانا أن تحملنا كراحتنا لهم على ظلمهم وعدم العدل فيهم؛ كما قال تعالى: (ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى) [المائدة:8]

إن الصحابة رضي الله عنهم لما فهموا هذا المعنى السامي للعدل في الإسلام، كانوا يلزمون أنفسهم بالعدل بين أحب الناس إليهم وأبغضهم إليهم، ولك أن تنظر معي إلى هذا

الموقف العادل النبيل الذي وقفه عبد الله بن رواحة رضي الله عنه لما أمره الرسول صلى الله عليه وسلم أن يذهب إلى خيبر ليخرص ثمارها - أي يقدر ما تنتجها أشجارها وزروعها، فيلزمهم بدفع الشطر منه لرسول الله صلى الله عليه وسلم كما هو نص اتفاقهم معه - فشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم شدة حرصه، وأرادوا أن يرشوه فقال: (يا أعداء الله أتطمعوني السحت، والله لقد جئتمكم من عند أحب الناس إلي ولأنتم أبغض إلي من عدتكم من القردة والخنازير، ولا يحملني بغضي إياكم وحيي إياه على أن لا أعدل عليكم فقالوا بهذا قامت السماوات والأرض) . [أخرجه البيهقي (6/114)، (137/9) من حديث ابن عمر، وصححه ابن حبان (11/608)] .

8- وإن من عدل الإسلام الذي سبق به كل ما عرفته البشرية من دساتير ومعاهدات ومواثيق، أنه جعل كل إنسان مسؤولاً عن فعله بحيث لا يؤاخذ أحد بذنوب غيره، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى، وقد استقر هذا المبدأ عند المسلمين الأوائل بحيث صار من المسلمات التي لا تحتاج إلى بيان، حتى إن مُبِير ثقيف الحجاج بن يوسف - وهو من هو في بغيه وشدة سفكه للدماء - لم يستطع إلا أن يرضخ لهذا المبدأ لما ذكر به، فقد ذكروا أن رجلاً دخل عليه يشكو من أنه أخذ بجريرة أخ له؛ فقال: إن أخي خرج مع ابن الأشعث فضرب على اسمي في الديوان ومنعت العطاء وقد هدمت داري، فقال الحجاج: هيهات أما سمعت قول الشاعر:

جانيك من يجني عليك وربما * تعدي الصحاح مبارك الجرب

ولرب مأخوذ بذنوب عشيرة * ونجا المقارف صاحب الذنب

فقال الرجل: أيها الأمير، إني سمعت الله يقول غير هذا، وقول الله أصدق من هذا، قال وما قال؟ قال: (قالوا يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين * قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا لظالمون)، فقال الحجاج: ((يا غلام أعد اسمه في الديوان، وابن داره، وأعطه عطاءه، وممر منادياً ينادي: صدق الله وكذب الشاعر)). [البداية والنهاية: (9/130)، وجمهرة خطب العرب

[405/2]

هكذا فعل حجاج دولة بني أمية ،الذي قال فيه عمر بن عبد العزيز رحمه الله : ((لو تخابشت الأمم ؛فجاءت كل أمة بخبيثها ،وجئنا بالحجاج لغلبناهم)) ،أما حجاجو عصرنا ،فلم يعد يحرك فيهم ساكناً أن يتلى عليهم قرآن ،أو أن يذكروا بسنة ،ففاقوا في الظلم من كانوا قدوة للظالمين ،وكانوا كالذي قال :

و كنتُ فتى من جند إبليسَ فارتقى * بي الحال حتى صار إبليس من جندي